**الصفات المستحبة في المحتسب إجمالاً**

**مقدمة: د. مجدي عبد العظيم إبراهيم**

إن الاحتساب باعتباره شعيرة عظيمة وأحد الفرائض الأساسية في بناء ديننا الحنيف يستلزم في ممارستها عدة أمور هامة للقيام بأمانة هذه الفريضة التي تهدف إلى الحفاظ على روابط وكيان المجتمع الإسلامي وإحاطته بسياج آمن لأبناء الأمة الإسلامية ومجتمعاتها، فكان من عظم شأن هذه الفريضة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، أن شرعنا الحنيف حرص على صفات كان لها من الأهمية بتوافرها في شخص كل من يقوم بأمر الاحتساب ولم يترك الأمر للهوى أو الصدفة.

فالدين الإسلامي حرص على توافر صفات مستحبة في القائم على هذا الأمر تمكنه من القيام بواجبه تجاه أبناء أمته الإسلامية من صفات الصدق والأمانة والصبر والنصح والتحلي بكل ما يجعله قدوة للآخرين؛ مما يجعل أمره مقبولاً لديهم في كل ما يمارسه تجاههم من توجيه أو إرشاد أو نصح، والابتعاد عن كل ما يسيء للنفس من تصرفات وأخلاق وأفعال من شخصٍ مهمته الأولى إصلاح كل منكر والتوجيه إلى كل ما هو معروف مما يجعله مثلاً يحتذى به وذلك لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

فكان لنا خير مثال أمين هذه الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة وأخلاقه العالية، وكيف لا وهو من أدّبه رب العزة والجلال، قال تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم)([[1]](#footnote-1)). كذلك ما ورد عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها عندما سُئلت عن خُلق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قالت: "لقد كان خلقه القرآن"([[2]](#footnote-2)). وبناء على ما سبق تتأكد حقيقة أن التعلم والأخلاق مورده كتاب الله وسنه رسوله العظيم، مما يعكس تصورًا واضحًا وتوجيههًا صريحًا لكل من حمل جزء من أمانة هذا الدين في النهل من كتاب الله الكريم والتأسي بسيرة خير خلق الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

لذلك كان للقائم بأمر الاحتساب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أن تتوافر صفات وآداب عظيمة به للقيام بواجب هذه الشعيرة العظيمة وفي نفس الوقت تكون متعلقة بطبيعة هذه الوظيفة([[3]](#footnote-3)) ومن هذه الصفات والآداب:

أ- **الإخلاص:** والمقصود به أن يأخذ ببواعثه واجتناب نواقضه، فشرط صلاح أي عمل صلاح نيه القيام به، فإذا كان المكلف بالاحتساب في عمله خالطت نيته السمعة أو الوجاهة أو أي أمر دنيوي أو مصلحة شخصية انتفى عن عمله صفة الإخلاص وكان عمله لغير وجه الله، وبالتالي فسد عمله بانتفاء نية الإخلاص فيه والتي تكون لوجه الله وهدفه إعلاء كلمة الله وشأن هذا الدين.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "مَن عَوَّد نفسه العمل لله لم يكن أشق عليه من العمل لغيره، ومن عود نفسه العمل لهواه وحظه؛ لم يكن أشق عليه من الإخلاص والعمل لله"([[4]](#footnote-4)).

وقال الإمام ابن تيمية: "وتحقيق ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها، وقد قال تعالى: (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ([[5]](#footnote-5))، وهو كما قال الفضيل بن عياض – رحمه الله -: أخلصه وأصوبه، فإن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنَّة، فالعمل الصالح لابد أن يُراد به وجه الله تعالى، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أُريد به وجهه وحده.. وإذا كان هذا حدَّ كل عمل صالح، فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، يجب أن يكون هكذا في حق نفسه"([[6]](#footnote-6)). وهذا ما يعني أن الإخلاص والصلاح رابط واحد لقبول العمل من الله عز وجل ولانتفاء أي شبهة نقص فيه، فتوافر الإخلاص في نية القيام بعمل مع توافر صفة الصلاح له كان العمل مكتملاً بمستلزماته (الإخلاص والصلاح) فكان لوجه الله ومقبولاً، وإذا ما انتفى أي شيء منهما فقد العمل شرعيته وأهدافه التي من أجلها قرر له أمر الاحتساب.

ب- **العمل بما علم:**وهو ما يستوجب على المحتسب القيام به بما لديه من علم ومعرفة بحدود ونواهي أمر هذا الدين مما يمكنه من ممارسة رسالته بكل خلق ونبل وفضيلة وبقاعدة صلبة يقف عليها في كل توجيه بمعروف وفي كل منكر يدفعه، وحتى لا يكون جهله بالأمور سببًا لاختلاط الأمر على الناس فيأمر بما هو منكر ويدفع بكل ما هو معروف. فلابد أن يكون شخصه هو أول من يلتزم بحدود هذا الدين وتوجيهاته وفعل كل ما هو معروف فيه واجتناب كل ما هو منكر وفاسد، فكان من اللازم أن يكون نهي غيره عن كل منكر هو نهيًا لنفسه أولاً وحث الغير على القيام بكل ما هو معروف وصالح دافعًا له أن يكون لنفسه السبق فيه واجتناب كل شبهة وحرمة. قال تعالى: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)([[7]](#footnote-7)). كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه"([[8]](#footnote-8)).

ج- **الحزم:**وهو ما يجب أن تكون عليه شخصية المحتسب في القيام بمهامه، مما يجعل له هيبة ووقار في تصرفاته وتوجيهاته تجاه التصرفات الصادرة من أفراد المجتمع، وخلق نوع من الثبات في مواجهته معهم وعدم خضوعه لأي مؤثرات خارجية تؤثر عليه وعلى مهامه مما يوفر قاعدة ثابتة أنه في حالة وقوع المنكر سيتم مجابهته من قبل المحتسب المكلف بضبط أمور الناس بدون أي تهاون، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون)([[9]](#footnote-9)).

د- **الرفق والحلم والأناة:** فالرفق هو اللطف ولين الجانب وحُسن الصنع([[10]](#footnote-10))، والحلم هو: الأناة والعقل والوقار، والأناة دالة على كثرة الحلم، فُيقال: رجلُ آنٍ: كثير الحلم([[11]](#footnote-11)).

فالمحتسب في أمره بالمعروف وإنكاره للمنكر لابد أن يكون لين الجانب وهذا يتطلب منه تحصنه بالعلم الشرعي حتى تتوافر لديه الحجة والإقناع والقبول من جانب كل من جاء منكرًا أو غفل عن معروف، وهذا يستدعي منه صبره وعدم غضبه من المحتسب عليه بدون غلظة أو شدة، لأنه في فقدان النصح بأسلوب لين ولطيف وصبر لن يستطيع المحتسب تحقيق أي خطوات إيجابية تجاه من يحتسب عليه وهو ما جاء به شرعنا الحنيف وأكد عليه، قال تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاَ غليظ القلب لأنفضوا من حولك .... إن الله يحب المتوكلين)([[12]](#footnote-12))، وقوله صلى الله عليه وسلم: "من يُحْرَم الرِّفق يُحْرَمُ الخير"([[13]](#footnote-13)).

قال النووي في شرحه لهذا الحديث:"في هذه الأحاديث فضل الرفق والحث على التخلق وذم العنف،والرفق سبب كل خير"([[14]](#footnote-14)).

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله"([[15]](#footnote-15)). وقال صلى الله عليه وسلم: "من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير"([[16]](#footnote-16)).

قال الإمام الشيزري: "وليكن من شيمته الرفق ولين القول وطلاقة الوجه وسهولة الأخلاق عند أمره للناس ونهيه، فإن ذلك أبلغ في استمالة القلوب وحصول المقصود.. وليكن متأنيًا غير مبادر إلى العقوبة ولا يؤاخذ بأول ذنب يصدر منه، ولا يعاقب بأول زلَّة تبدو؛ لأن العصمة في الخلق مفقودة فيما سوى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين"([[17]](#footnote-17)).

والمفهوم من ذلك أنه من مستلزمات المحتسب في أداء مهامه هذه الصفات لضمان نجاحه في مهامه تجاه المحتسب عليهم، وليكن للمحتسب في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ولينظر كيف قضى أيامًا وسنوات في بناء هذا الدين العظيم وانتشاره؛ فكان سلاحه هو الرفق والتقرب والإفهام والصبر ولين الجانب، ولم يكن في يومٍ من الأيام غليظًا أو ذا شدة في تأليف القلوب وكسبها فما يأتي بالرفق لا يأتي بالغلظة.

هـ - **الحكمة:** وهي أن يكون المحتسب قادرًا على وضع الأمور في موضعها، فيجب أن يكون لين الجانب رفيقًا في موضع، ويعرف متى يتصف بالشدة في موضع، وينزل العقوبة دون تهاون أو تخاذل فكل في موضعه، هنا يبرز معناها في شخصية المحتسب القائم على أمور العباد ومصالحهم ودرء المفاسد ودفعها، قال تعالى: (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب)([[18]](#footnote-18)).

و- **العدل:** وهو ضد الجور، وما قام في النفوس والفطر السليمة أنه مستقيم بدون إفراط ولا تفريط، ولكن بالاعتدال في طلب الحق، والمعنى هنا أن يتسم المحتسب بالعدل ولا يظلم أحدًا، ويكون في احتسابه على كل شخص في فعله على قدر فعله فإذا صغر منكره كان احتسابه مناسبًا له وإذا كبر كان لابد أن يكون مواجهته بما يتناسب مع حجم ذلك المنكر والمفسدة.

قال ابن تيمية: "لا يعتدي على أهل المعاصي بزيادة على المشروع في بغضهم أو ذمهم، أو نهيهم أو هجرهم، أو عقوبتهم... فإن كثيرًا من الآمرين الناهين قد يتعدى حدود الله؛ إما بجهل وإما بظلم، وهذا باب يجب التثبت فيه، وسواء في ذلك الإنكار على الكفار والمنافقين والفاسقين والعاصين"([[19]](#footnote-19)).

وهنا نجد من خلال هذا النص روعة هذا الدين الحنيف الذي أساسه العدل وضد كل ما هو ظلم وجور، حتى مع المخطئين وذلك بإنزال العقاب على مستحقه بقدر خطئه ممن كلف بالعقاب ووضع الضوابط والحدود في ذلك فيكون العقاب على قدر الخطأ ولا يتجاوزه.

ز- **الصبر:** وهو حبس النفس عن الجزع والشكوى لغير الله، والمعنى هنا عدم الجزع عند رؤية المنكرات، والصبر في أداء مهامه (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) محتسبًا كل أذى يلحق به عند الله تعالى، قال تعالى –في وصية لقمان لابنه-: (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر وأصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) ([[20]](#footnote-20)). كذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى وصّى بهذه الصفة والتحلى بها وقد حث عليها نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم في تحمله الكثير من الأذى والصعاب في دعوته لهذا الدين الحنيف وبناء أركانه قال تعالى: (وأصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)([[21]](#footnote-21)).

قال الإمام ابن تيمية: "ولابد أيضًا أن يكون حليمًا صبورًا على الأذى؛ فإنه لا بد أن يحصل له أذى، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح.... فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور به وترك السيء المحظور، ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يُقال؛ والصبر على ما يصيبه من المكاره، والصبر عن البطر عند النعم، وغير ذلك من أنواع الصبر، ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويتغذى به وهو اليقين"([[22]](#footnote-22)).

ومعنى ذلك أنه يجب على المحتسب أن يصبر في دفع كل المنكرات ولا يجزع من ذلك ويضعف في تصديه لهذه المنكرات، بل عليه الوقوف أمامها مهما كبرت ومهما كثرت وأن يصبر دون جزع أو خوف، وإلا لزاد المنكر وكبر الضرر وفسد المجتمع، وله في ذلك خير مثال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي صبر وصابر حتى تحقق له ما يصبو إليه من قيام أركان هذا الدين وانتشار دعوته رغم ما لاقاه من أذى سواء في مكة أو في الطائف وامتثالاً لقول الله تعالى: (فأصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ... فهل يهلك إلا القوم الفاسقون)([[23]](#footnote-23)).

**ح- العفو والصفح:** وهو ترك عقوبة المستحق طلبًا للأجر من الله تعالى ([[24]](#footnote-24)). والمعنى هنا أن المحتسب أثناء قيامه بمهام وظيفته قد يناله شيء من الأذى في ماله أو في نفسه من المحتسب عليه، فلو قدر المحتسب على أخذ حقه من المحتسب عليه، فعليه أن يعفو ويصفح لأنه بذلك يحقق التكامل المفترض أن يكون في شخصية الإنسان المسلم فما بالك من وكل إليه بمهمة الإصلاح والنصح وإقامة الدين، قال الله تعالى: (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ) ([[25]](#footnote-25)).

وورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادمًا له، ولا امرأة ولا دابة، ولا شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نِيلَ منه فانتقم لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله، فإذا انتهكت محارم الله، لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله"([[26]](#footnote-26)).

وقال ابن تيمية: فالذي ينبغي في هذا الباب، أن يعفو الإنسان عن حقه، ويستوفي حقوق الله بحسب الإمكان([[27]](#footnote-27))، قال تعالى: (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون)([[28]](#footnote-28)).

وهنا يفهم مما سبق أن العفو والصفح من قبل المحتسب من جراء احتسابه ينبغي عليه فعله إنفاذًا لما جاء في كتاب الله، قال تعالى (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) ([[29]](#footnote-29)). وتأسيًا برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي عفا وصفح حين قدر على من آذاه وعاداه، وما فتح مكة بخاف حين قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء".

ط- **أن يعتني بمظهره ونظافته:** فيجب على المحتسب أن يكون مثالاً يحتذى به في الأقوال والأفعال وفي الهيئة وحتى يكتمل به صفات ونموذج المسلم الصحيح، بتربية نفسه وأهله على أسس وقواعد الدين الصحيح فتكون مهام احتسابه نابعة منه قولاً وفعلاً، مما يشجع غيره في الانقياد له واتباعه وقبول نصحه وتوجيهه، فتصبح مرجعيته مرجعية صحيحة وسليمة لكل فرد من أفراد هذا المجتمع.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: "وأن يعتني بنظافة ملبسه وطيب رائحته، وأن يراقب ذلك في أهله وغلمانه وأعوانه ومساعديه زيادة على أداء الواجبات حتى يُسمع لأمره ويُنتهي بنهيه"([[30]](#footnote-30)). وهذا يعني أن القائم بأمر الاحتساب لابد وأن يكون نموذجًا كاملاً متكاملاً من حيث الشكل والمضمون؛ فبذلك تتوافر مستلزمات الاقتداء.

1. () سورة القلم، الآية: 4. [↑](#footnote-ref-1)
2. () النيسابوري، في صحيحه، كتاب الصلاة، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، 2/168-170. [↑](#footnote-ref-2)
3. () ينظر: الحسبة النظرية والعملية عند شيخ الإسلام ابن تيمية ص 103. مرجع سابق ص 55. [↑](#footnote-ref-3)
4. ()  ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب، عدة الصابرين، ص82. [↑](#footnote-ref-4)
5. () سورة هود، الآية: 7. [↑](#footnote-ref-5)
6. () ابن تيمية: في مجموع فتاويه 28/ 134 – 135. [↑](#footnote-ref-6)
7. () سورة البقرة: الآية: 44 [↑](#footnote-ref-7)
8. () النيسابوري، في صحيحه ، كتاب الزهد والرقائق، باب: عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله 4/ 2291. [↑](#footnote-ref-8)
9. () سورة الأنفال، الآية: 27. [↑](#footnote-ref-9)
10. ()  الفيروزآبادي، في القاموس المحيط (مادة: رَفَقَ) 3/244. [↑](#footnote-ref-10)
11. () ينظر: المرجع السابق 4/100. [↑](#footnote-ref-11)
12. () سورة آل عمران، الآية 159. [↑](#footnote-ref-12)
13. () النيسابوري، في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق، 4/2003- 2004. [↑](#footnote-ref-13)
14. () النووي : أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي شرح صحيح مسلم، كتاب البر والصلة باب فضل الرفق، 16/ 145. [↑](#footnote-ref-14)
15. () البخاري، في صحيحه، الحديث رقم 6395. [↑](#footnote-ref-15)
16. () الترمذي، في جامعة، الحديث رقم 2013. [↑](#footnote-ref-16)
17. () الشيزري، الطَّبَرِيّ؛ عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الْعَدْوى، في نِهَايَة الرُّتْبَة الظريفة فِي طلب الْحِسْبَة الشَّرِيفَة، ص9. [↑](#footnote-ref-17)
18. () سورة البقرة: الآية: 269. [↑](#footnote-ref-18)
19. ()ابن تيمية، في مجموع الفتاوي 14/481-482. [↑](#footnote-ref-19)
20. () سورة لقمان، الآية: 17. [↑](#footnote-ref-20)
21. () سورة الطور، الآية: 48. [↑](#footnote-ref-21)
22. () ابن تيمية، في مجموع الفتاوي، 28/ 136، 153. مرجع سابق. [↑](#footnote-ref-22)
23. () سورة الأحقاف، الآية: 35. [↑](#footnote-ref-23)
24. () الفيروز آبادي، القاموس المحيط ،مادة: (عَفَوَ) 4/366. [↑](#footnote-ref-24)
25. () سورة البقرة، الآية: 109. [↑](#footnote-ref-25)
26. () النيسابوري، في صحيحه ، كتاب الفضائل، باب: مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثارم واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته 4/1814. [↑](#footnote-ref-26)
27. ()  ابن تيمية، في مجموع الفتاوي، 15/174. [↑](#footnote-ref-27)
28. () سورة الشورى: الآية: 39. [↑](#footnote-ref-28)
29. () سورة البقرة، الآية: 109. [↑](#footnote-ref-29)
30. ()ابن تيمية، المرجع السابق، 28/359، 425. [↑](#footnote-ref-30)